The ego and the other in the thought of Mahmoud Amin Al- Alam.

Dr. Hala Ali*
Boushra Fouad Abbas**

(Received 4 / 4 / 2022. Accepted 14 / 9 / 2022)

□ ABSTRACT □

Mahmoud Amin Al-Alam aims in this research to reveal the backwardness, dependency, and marginalization that the Arab reality suffers today at all levels by global capitalism, in addition to the crises, exploitation, injustice and extension of its colonial expansion all over the world. Through its invention of a fictitious history of the West, full of progress, development, achievements, civilizations, and distinguished culture in contrast to the history of Arab backwardness and making them in a state of permanent dependence, which will lead us to question the relationship of the ego to the other and how to get out of the crucible of the superior Western and the Eastern subordinate.

Research will try as much as possible to intensify the ideas to clarify the opinion of Mahmoud Amin Al-Alam regarding the relationship of the ego to the other and the way he rejects the hostile duality between them, and the advantages of each, and what is the alternative to that dualism which is nothing but an attempt to exclude and deny the other and highlight its negatives until the unique ego emerges.

Key words: ego , other , confidentiality, creativity, growth , culture, Subaltern.

* **Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Art and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

** **Postgraduate student. Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen university, lattakia, syria.**

الأنا والآخر في فكر محمود أمين العالم

د. هلا علي*

بشرى فؤاد عباس**

(تاريخ الإيداع 4 / 4 / 2022. قبل للنشر في 14 / 9 / 2022)

ملخّص

يرمي محمود أمين العالم في هذا البحث إلى الكشف عمّا يعانيه الواقع العربي اليوم من تخلف وتبعية وتهميش على كافة الأصعدة من قبل الرأسمالية العالمية، إضافةً إلى ما يتولد عنها من أزمات واستغلال وظلم وامتداد لتوسعها الاستعماري في جميع أنحاء العالم وذلك من خلال اختراعها لتاريخ وهمي خاص بالغرب حافل بالتقدم والتطور والإنجازات والحضارات والثقافة المتميزة مقابل تاريخ تخلف العرب وجعلهم في حالة من التبعية الدائمة، الأمر الذي سيقودنا إلى التساؤل عن علاقة الأنا بالآخر وكيفية الخروج من بوتقة الغربي المتفوق والشرقي التابع.

يحاول البحث قدر الإمكان تكثيف الأفكار لإيضاح رأي محمود أمين العالم حول علاقة الأنا بالآخر ورفضه للثنائية العدائية بينهما، وميزات كل منهما، وما هو البديل عن تلك الثنائية التي ما هي إلا محاولة لإقصاء الآخر وإنكاره وإبراز سلبياته حتى يبرز الأنا المتفرد.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الخصوصية، الإبداع، التنمية، الثقافة، التابع.

* **أستاذ مساعد– قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**

** **طالبة دراسات عليا (ماجستير)– قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**

مقدمة:

إذا كان الأنا في جوهره هو مصدر انبثاق الهوية فإن الآخر هو امتداد للثقافات والأمم والآخر في ذاته يحمل الكثير من الصراعات بين تناقضات يحاول أن يقيم نوعاً من التوازن بينها من دون حدوث اختلال فيها أي بين واقعه والواقع المغاير له انطلاقاً من أن الأنا والآخر لحظتان فكريتان مختلفتان بالخصوصية والإبداع والتنمية والثقافة والفكر والتراث، ومن هنا يجب أن نكون على وعي وإدراك كافٍ لمعرفة انتقاء ما يجب اقتنائه من الآخر باعتباره أكثر تقدم وأن نعي خطورة التجرد ممّا يهدد وجود الأنا وهويتها كما يجب أن نعي خطورة أن نكون في موقع التابع الذي يحاول الآخر المستعمر فرض إبقاء الأنا في ذلك الموقع من أجل تهميشها والسيطرة عليها واحتكار مواردها وتراثها. فالإبداع والآخر يفتحان آفاقاً واسعة لتحقيق الحرية والديمقراطية، كما أن الإبداع لا يكون بإحياء التراث وإنما باحتوائه احتواءً عقلانياً نقدياً، الإبداع لا يعني التجرد الكامل من الماضي، ولا يعني الانفتاح غير الواعي لكل ما هو جديد، ولا يعني الاجترار العشوائي لكل ما يقدمه لنا الآخر، وإنما يعني انتقاء ما يُثري فكرنا ويُغني عالمنا فقط، ومن هنا نؤكد ونركز على ضرورة الربط المُدرك بين الأنا والآخر، وبين الخصوصية والإبداع، وبين الثقافات من دون استنكار أحدهما للآخر، وهذا ما سيحاول البحث التركيز عليه من خلال عرضه لمفهوم التابع ودوره في تكوين الصراع بين الأنا والآخر.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من أهمية الأسئلة التي يطرحها البحث أهمها: ما هو دور الآخر في تكوين هوية الأنا؟، وما هو دور الأنا في إغناء عالم الآخر؟ ماذا يُقصد بالتابع؟ وما هو دوره في صناعة تاريخ الأنا والآخر؟ وهنا تتمثل أهداف البحث من خلال المحاولة للإجابة عن مجموعة التساؤلات التي قمت بطرحها ذلك من أجل الكشف عن أهمية الوحدة بين الأنا والآخر وإلغاء الثنائية وضرورة تكريس ثقافة تقبل الآخر دون أن يقوم الأخير بإقصاء الأنا.

منهجية البحث:

يتبع هذا البحث المنهج الوصفي وهو المنهج ذاته الذي اتبعه محمود أمين العالم في دراسته للعلاقة بين الأنا والآخر وفي تناوله لدور التابع في إعادة هيكلة تاريخ الأنا والآخر، الشرق والغرب، وقد تقودنا تطورات هذا البحث إلى اعتماد منهج آخر يساعدنا أكثر في توضيح مفهوم الأنا والآخر والواقع الذي فرضه الآخر الغربي على الأنا المتمثل بالكولونيالية الاستعمارية وما بعدها.

النتائج والمناقشة

أولاً: مفهوم الأنا والآخر:

عادةً ما يقصد بالأنا: الأنا القومية أو الهوية القومية فيما الآخر: يقصد به الحضارة الغربية الحديثة، وذلك كما ترد في نصوص الفكر العربي.

هناك علاقة عدائية بين الأنا والآخر، نشأت تلك العدائية من الإيمان بفكرة " أنا او لا أحد " ومن فكرة أن الآخر هو عدو لي، يسعى لاستغلالي واستعبادي والسيطرة عليّ عدا عن نظرته العنصرية لي محاولة منه للحصول على التمركز أو التفرد العالمي لقاء أن يفرغني الآخر من كل ما أملكه من حضارة وتراث ومنجزات وإفراغ ثقافتي واستبدالها بثقافته كي يبقيني في حالة من التبعية الدائمة له.

ولكن ما يجب علينا فعله هو أن نوضح معنى أن تكون الأنا " أنا " والآخر " آخر " من دون أن يخضع أحدهما للثاني، ولو بينّا طبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بينهما وحددنا إطار مفهوم كل منهما لأصبحت العلاقة أكثر متانة وزالت الثنائية التي يولداها وينتجان عنها الكولونيالية الاستعمارية والتبعية ولكان ساد مفهوم ثقافة الآخر وتقبله وثقافة التبادل اللتان تؤسسان لعالم متعدد المراكز من دون سيادة مفهوم القوي على الضعيف.

ويجب أن نوضح أن الثنائية لا تعني شن الحرب وإنما تعني أن الأنا والآخر جزءان من ضمن وحدة لا ينفصلان عن وحدة العالم ككل فهي وحدة لا انفصال فيها، يجب الغوص في بحر حضارات وثقافات واختلافات بعضهم مع محافظة كل منهما على ما يمتلكه من خصوصيات، فالثنائية لا تعني إلغاء أو نفي الآخر وإنكاره. وكما يقول محمود أمين العالم:

" الأنا موجود في الآخر، كما أن الآخر موجود في الأنا، والأنا والآخر يشكلان على تفاوت قدراتهما حالياً، عالماً حضارياً واحداً هو ما يمكن أن نسميه بعالم "نحن". [1]

وحين يقول محمود أمين العالم أن من حق الأنا والآخر أن يؤكدا ذاتيتهما لا يشترط هذا الحق أن يتحرر الأنا من الآخر أو العكس وإنما إزالة ما يتغلغل داخلهما من سلبيات كالسيطرة والاستغلال والعنصرية مع الإبقاء على الإيجابيات.

إن علاقة الأنا بالآخر الغربي في الفكر العربي قد تمثلت في أكثر من اتجاه، على أن أكثر ما يطبع هذه العلاقة فكرياً اتجاهان اثنان، أحدهما استغرابي، وآخر تراثي او إسلامي، وقد تجد ما يجمع بين عناصر الاثنين، وفي الحالتين قدم محمود أمين العالم عدة قراءات لهذه المواقف، على ان أشدها تأثيراً قراءته للموقف الإسلامي الحضاري في مواجهة الموقف الحضاري الغربي، فيقدم نقداً عقلياً مستبصراً مزايا وعيوب القراءة الإسلامية للغرب، *فمحمود أمين العالم يرى بأننا عندما نتأمل أوجه الخلاف العام التى يقول بها بين الموقف الإسلامى الحضاري وموقف الحضارة الغربية؛ نتبين أنه يقيم هذا الخلاف على أسس قابلة للجدل؛ بل هي أقرب إلى السجال الفكرى منها إلى الحقائق المستخلصة من الدراسة العلمية. فالموقف الإسلامي يرى الحضارة الاسلامية حضارة توحيدية على حين أن الحضارة الغربية والعقلية الغربية مفرقة. وهي قضية تناولها أنور عبد الملك وحنفي وناقشها العالم وهي على أية حال قضية خلافية ولا تستند إلى أسس موضوعية برأي أمين العالم، فهناك برأيه توجهات توحيدية وتفريقية فى كلا الفلسفتين العربية الإسلامية والغربية.* [2]

[1] العالم، محمود أمين. مفاهيم وقضايا إشكالية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط1، 1989، ص215.

[2] العالم، محمود أمين. الاستغراب– مشروع حسن حنفي الحضاري، جدل الأنا والآخر– قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، تحرير وتقديم: عبد الحليم عطية، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، 1997، ص 172.

ثانياً: علاقة الأنا والآخر بالخصوصية والإبداع:

قد قلنا سابقاً أن الأنا والآخر جزءان لا ينفصلان، وهي من ضمن وحدة ممتلئة بالاختلافات والتنوعات، والثنائية لا توجد فقط بين أنا وآخر، وإنما أيضاً بين الأنا والأنا داخل الأنا القومية الواحدة، فكما هناك أنا منتج وأنا غير منتج، وأنا عامل وأنا مالك رأسمالي وإقطاعي، وأنا حاكم وأنا محكوم. يؤكد محمود أمين العالم أن الهوية القومية مفتوحة على جميع الجوانب الأدبية والفنية والفكرية والثقافية والدينية والاقتصادية وليست حكراً على جانب واحد فقط وليست مقيدة داخل إطار واحد. يقول محمود أمين العالم:

" الأنا القومية، الهوية القومية ليست قومية مقفلة جامدة نهائية، وليست هوية قومية تقوم على علاقة ثنائية عدائية أو استبعادية بالنسبة لكل ما هو آخر، بل هي هوية قومية نعم، ولكنها مشروع مفتوح على امكانيات موضوعية شتى، مشروع متفاعل متداخل مع هويات قومية أخرى، وهو مشروع متطور مع تطور الوقائع والمعارف العلمية والمنجزات العملية، والأوضاع الاجتماعية والتاريخية في العالم وفي العصر، وهو مشروع امتداد بغير شك لتراثنا العريق، في غير احتجاز داخل حدوده، وفي غير قطيعة مطلقة معه ". [3]

وهنا يحق لنا التساؤل: كيف يكون للأنا إمكانية مفتوحة التطور والتفاعل مع الآخر وتكون في الوقت نفسه امتداد لتراثها القديم؟

هذا التساؤل هو الذي سينقلنا إلى مفهوم آخر وهو الإبداع.

الإبداع ليس مناقض للأنا أو الخصوصية أو التراث وإنما محاولة إضافة أو إغناء الأنا أو التراث بأفكار وأطروحات وثقافات تتميز بخبرات جديدة لم تكن مألوفة أو سائدة من قبل، من شأنها أن تثري الأنا فكرياً وعلمياً وحضارياً وثقافياً.

ويعرف الإبداع بأنه " تجديد الذات بتجديد الموضوع، فلا ابداع خارج نطاق الذات وبها، والذات هي محصلة الخصوصية وحاملتها، ولهذا لا ابداع خارج نطاق الخصوصية الذاتية، ولكن الخصوصية متعددة الأنساق والعناصر، فهي تتضمن أنساقاً ذاتية وموضوعية ومعرفية وبيئية واجتماعية، مادية، روحية، قومية وعالمية، إلى غير ذلك إنها محصلة خبرة تاريخية متعددة العوامل والآليات ".

ويبين العالم عن مدى التأثير المتبادل بين الأنا والآخر أو بين الخصوصية والإبداع بقوله:

" إذا كانت الخصوصية القومية والاجتماعية هي مصدر الابداع وقاعدته، فالإبداع هو القوة المغيرة المطورة لهذه الخصوصية ". [4]

كما نجد المفكر سمير أمين يتفق مع المفكر محمود أمين العالم في نظرته لتحقيق مفهوم القومية بمفهومها الواسع والكوني، وللحفاظ على هوية وخصوصية كل مجتمع من خلال الاستغناء عن مفهوم الثنائية في كل شيء، سواء بثنائية البلدان أو ثنائية مجتمعين أو ثنائية مفهوم الأصالة والتحديث، فالأصالة لا تعني الجمود والتحديث لا يعني الاستغناء عن التراث وهويتنا بل يعني القدرة على النقد والسعي للإضافة والإبداع مع احترامنا لتراثنا وتمسكنا بهويتنا وبمقدار ما نمتلك من قوة على النقد بمقدار ما نفتح لأنفسنا آفاق الانفتاح على عصرنا وبمقدار ما ننتج ثمار إبداعية لتراثنا، يقول محمود أمين العالم:

[3] **العالم، محمود أمين. مفاهيم وقضايا إشكالية، مصدر سبق ذكره، ص224**

[4] **المصدر السابق نفسه، ص232**

" إن الهواء الذي تتنفس وتنتعش وتتحقق وتتوحد به هويتنا هو في تقديري التنمية الإنتاجية العربية الشاملة وهو العقلانية واحترام الاختلاف في الرأي وروح النقد والحرية والابداع ". [5]

وكذلك الأمر بالنسبة لمفهوم التنمية والثقافة فعلى الرغم من اختلاف خصوصية كل منهما إلا أنها يجب أن تسعى لتصب في مجرى واحد وهو توحيد الإنسان بعيداً عن إغراق إنسان في التخلف والتبعية لصالح إنسان آخر.كما ليس علينا الغوص في كل انفتاح يقدمه لنا الغرب فربما يكون امتداداً لتوسعه واستعماره في العالم العربي وإغراقه أكثر في التخلف، وهذا ما عبر عنه محمود أمين العالم بقوله:

"الواقع أن هذا الانفتاح لا يعبر عن تنمية بقدر ما يعبر عن المزيد من التبعية والاختراق الإمبريالي لمختلف المستويات السياسية أو الفكرية والاقتصادية والثقافية والمجتمع، وهي تنمية مالية أو نمو تضخمي للثروة المالية وليس تنمية اقتصادية، وهو في الوقت نفسه تكريس لواقع التخلف، ونزح ونزف لناتج العمل القومي لصالح حفنة من الأغنياء، ولصالح الرأسمالية العالمية، وعلى حساب الاستقلال والتقدم، والهوية القومية والثقافية". [6]

لقد تطورت الحركة الثقافية العربية وحققت قفزة حقيقية لأول مرة مع مكتسبات حركة التحرر العربية في فترة الاستقلال، ومنن ثم جددت الثقافة العربية شبابها، وطورت نتاجها الفكري والأدبي والفني والشعري مع نهوض الحركة القومية، وظهور الدولة العربية القومية في أواسط القرن العشرين كمناهضة للمركزية الغربية جنباً إلى جنب مع جهود السياسيين والتحررين والمفكرين الوطنيين في دول العالم النامي، كل ذلك أعاد إنتاج الفكر العربي وتصوره عن الهوية العربية وقدرتها على إنتاج أفكارها الخاصة المستقلة عن مركز الإنتاج الصناعي المعرفي عبر العالم، ورغم كل ذلك وجد المثقف العربي في كثير من الحالات في وضعية إثبات الذات وانتزاع الاعتراف بهويته الثقافية، وهذا ما حذا بإدوارد سعيد لأن يقول: "يشعر المثقفون العرب بعدم وجود اعتراف كامل في هذا الواقع الثقافي العظيّم في بقية العالم عموماً وعالم شمال الأطلنطي وأكثر تحديداً العالم الانغلوساكسوني بشكل خاص..." [7]

وفي السياق التحرري المركب، وجد المفكر العربي نفسه يتأرجح بين موقفين، الأول هو التشبث بهويته الغنية بالعناصر الفكرية المتأصلة، والثاني هوم رغبته في الخروج إلى العالمية وهو ما ينطوي ضمناً على انتزاع اعتراف ثقافي باستقلاليته من المركز الغربي على المستويات المعرفية والثقافية، فكان أن تكون مع تراكم الأفكار الثقافية اتجاه منهجي استغرابي لقراءة الآخر الغربي، في اتجاه معكوس للاستشراق، وقد تبلور هذا الاتجاه برأي يوسف زيدان لفهم الهوية العربية الإسلامية وفهم الآخر الغربي بناء على متطلبات وتحولات العصر الحديث، هذا المنهج الاستغرابي، كان أهم رواده، حسن حنفي، الذي أثار مشروعه كثيراً من النقاش بين المفكرين العرب أمثال محمود امين العالم ويوسف زيدان، والأخير يرى جملة صعوباتٍ أساسية ومشكلات جوهرية تواجه ذلك الاتجاه الاستغرابي، وتحول دون نجاحه كما نجح الاتجاه المقابل له أي (الاستشراق) وتتلخص هذه الصعوبات على الشكل الآتي[8]:

---

[5] **العالم محمود أمين، الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1996 ص21**

[6] **المصدر السابق نفسه، المكان نفسه.**

[7] **سعيد، إدوارد. خيانة المثقفين، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، 2011، ص 135.**

[8] **زيدان، يوسف. الاستغراب جذوره ومشكلاته، جدل الأنا والآخر – قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، تحرير وتقديم: عبد الحليم عطية، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، 1997، ص 160-161.**

1. لا تزال المبادرات (الاستغرابية) محض جهود فردية، فلم تتأسس بعد الطهطاوى. مدرسة لهذه الدراسة بحيث تتنامى الجهود وتتراكم المعارف. بينما شكل الاستشراق مؤسسةً فكرية غربية؛ ترعاها الحكومات وتخصص لها الأقسام الاكاديمية فى جامعات الغرب. وتمدها بالتمويل اللازم؛ وخاصية المأسسة هذه هي ما يفتقده مشروع الاستغراب.

2. كان الغرب يدرس الشرق من موضوع القوة والتفوق. وقد سهل ذلك عملية الحصول على المادة البحثية والمخطوطات وغير ذلك من القدرة المعلوماتية الممهدة للبحث بينما يواجه الاستغراب نقصاً معلوماتياً، إذ لا يسمح الغرب بتكوّن هذه الظاهرة لأنه فى موضع القوة من خلال تقييد المعلومات.

3. كان الاستشراق موظفاً فى خدمة الأغراض السياسية والاستعمارية للغرب، وهو لا يزال، أما عندنا فالحال مختلف، إذ لا ينظر أصحاب القرار فى العالم العربى الإسلامي إلى المادة البحثية بنفس الجدية، مما يعرض نتائج البحث (الاستغرابى) لخطر الإهمال؛ كغيره من البحوث؛ وبالتالى يتراجع تيار البحث فيه.

4. يلفت يوسف زيدان الانتباه إلى مسألة «المنظور» الذي يتم من خلاله قراءة الحضارة الغربية. إذ إن الذات العارفة العربية التي تعمد على فهم الآخر الغربي متمثلةً بشخوص الباحثين، ما زالت تعاني من مشكلة الهوية واضطراب مفهوم الذات. والتذبذب بين الانتماء العربى؛ والإسلامى؛ وغير ذلك من الانتماءات الفرعية. وهذا بدوره ينعكس على ما يقدمه الاستغراب الجديد، وتفاوت واضطراب نتائج الدراسات الاستغرابية.

5. تبقى صعوبة حاسمة بنظر زيدان، وهي الانبهار بالغرب، وهي خطورة عظيمة على الدارس فى حقل الاستغراب. فالمستشرقون درسوا الحضارة الإسلامية والتراث العربى وهما فى حالة سكون وخمود، أما الحضارة الغربية فهى لا تزال حية متطورةً، وهنا تنشأ إمكانية الانبهار واحتمالية أن يغرق الباحث الاستغرابي فى تيار الحضارة الغربية المتدفق؛ فيما يفقد القدرة على الوقوف على الثابت والمتحول فيها.

تكمن أهمية الاتجاه الاستغرابي أنه من جهة محاول إبداعية عربية لمضاهاة الآخر وتجاوزه –وإن في بعض المستويات الثقافية– معرفياً، غير أن الاستغراب ذاته من جهة أخرى، هو محاولة لتقليد الاستشراق معكوساً، أي أن المفكر العربي في حال تبنيه للمنهج الاستغرابي فإنه يمتلك فرصةً حقيقية لبناء دراسة تتجاوز الفكرة المسبقة عن الآخر، وهو بالمقابل يتعرض لخطر الوقوع في فخ تقليد المناهج الاستشراقية، أي أنه قد يتورط في منحة رد الفعل المنهجي والفكري العقيم، ويبين العالم أهمية محاولة حنفي وإشكالتها الكامنة في الوقت ذاته، إذ إنه "يحاول حسن حنفى أن يتخلص من الأسطورة القائلة بأن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، وأنها الحضارة الممثلة للحضارات البشرية جميعاً، وإنما هى «فكر فى ظروف معينة من تاريخ الغرب وهو نفسه صدى لهذه الظروف» فى الوقت نفسه بأنها «وريث الخبرات الطويلة للتجربة البشرية؛ تراكمت فيه من الشرق والغرب» على أن هذه الثقافة الغربية تهيمن على ثقافتنا وتصوراتنا للعالم فأصبحنا موضوعا لهاء ولهذا يسعى حسن حنفى بهذه «المقدمة لعلم الاستغراب» إلى أن تصبح هذه الثقافة الغربية موضوعا لدراستنا، بدلاً من أن نكون نحن موضوعاً لدراستها".[9]

إن المحاولات الفكرية لفهم ودراسة الآخر الغربي من قبل المفكرين العرب المعاصرين لمحمود أمين العالم، كانوا هم أنفسهم موضع نقد لأمين العالِم، فالاستغراب العربي لم يستطع في كل مرة تجاوز الأفكار المسبقة التي رسخها الآخر الغربي عن الذات العربية وذات الآخر الغربي، فالمفكر العربي عموماً وجد أن النسق المعرفي العربي الذي ينتمي إليه تقوم بينه وبين النسق المعرفي الغربي قطيعة معرفية ظاهرية، وبينما هو يحاول تجاوز هذه القطيعة يجد أن مسالة

[9] **العالم، محمود أمين. الاستغراب– مشروع حسن حنفي الحضاري، جدل الأنا والآخر، مرجع سبق ذكره، ص 167.**

الهوية مضطربة في ذهنيته الفكرية، محملاً بأفكار التراث، ورغبة عميقة بالتشبث بالهوية التاريخية، ويبين محمود *أمين العالم أن التراث الغربي يمثل في ذهنية المفكرين العرب أمثال حسن حنفى مفهوم «الآخر». إنه الآخر إزاء الأنا الإسلامي. بينما ما يزال هذا «الأنا» يعيش فى عصرنا الراهن على تقليد هذا الآخر؛ ويعده مصدرا لعلمه. بينما يجعل هذا «الآخر» من «الأنا» الإسلامي موضوعا له ولعلمه، ويريد العالم دعوة حسن حنفي إلى إبداع «الأنا» بدلاً من تقليد «الآخر»؛ وإلى إمكانية تحويل «الآخر» إلى موضوع للعلم بدلاً من أن يكون مصدراً للعلم.* [10]

ثالثاً: دراسات التابع:

جاءت دراسات التابع كنتيجة معرفية ومنهجية عن مصطلح ما بعد الكولونيالية باعتبارها مدلول زمني للإشارة إلى وضع الشعوب والدول في مرحلة ما بعد الاستقلال وباعتبارها حاجزاً مفهومياً يدل على قطيعة معرفية بين ما قبل الاحتلال وما بعده متضمناً فترة الاحتلال أي الكولونيالية نفسها لا قفزاً إلى ما بعدها كما أنها حقل معرفي يدرس علاقات القوة والمعرفة والإخضاع الثقافي بين أي شعب مستعمَر وشعب مستعمِر على مر التاريخ. فقد نشأت دراسات التابع في مطلع الثمانينات من خلال مجموعة من الباحثين الهنود الذين قاموا بقراءة نقدية للتاريخ الهندي من خلال دراسته أوضاع المهمشين والتابعين. ويعود أصل كلمة تابع بالإنكليزية (subaltern) إلى القرن السادس عشر وتعني من يتبع الأوامر وفق سلم التراتبية ويُستخدم للدلالة على الفئات الأقل مكانة في مجتمعاتها سواء كانت فئة إثنية أو دينية أو جنسية أو عرقية. فالتابع هو الفرد الذي يعيش ضمن مجموعة مهمشة غير قادرة على التعبير عن حاجاتها وتطلعاتها. وشكلت دراسات التابع دوراً هاماً في إعادة الاستقلالية للعالم الثالث حيث كشفت لنا أن المستعمر الغربي قام بتصوير تاريخ الشرق بصورة تاريخه هو (أي الغربي) أي أنه حول الفئات الفعالة والمميزة في الشرق إلى فئة مهمشة مسحوقة عديمة الإمكانية والقدرة مقابل تحويله للفئات المسحوقة والمهمشة في الغرب إلى فئات فعالة مميزة، أي قلب موازين الصراع بينه وبين الشرق من أجل فرض سلطته على الشرق واحتكاره موارده وثرواته.كما كشفت دراسات التابع لعبة الغرب في محاولته سلب التاريخ من الشرق من أجل جعله في حالة تعبئة غربية استعمارية. إذاً سعت جماعة دراسات التابع من حيث هي مشروع تحريري جماعي إلى تحرير صوت التابع من الهيمنة التي فرضت عليه من قبل الكولونيالية الغربية وذلك من أجل معرفة الدور الذي قامت به الطبقة الكادحة في سبيل تحرير أرضها ونيل استقلالها. تتميز دراسات التابع بفكر تقويضي يسعى إلى هدم النظام السائد للحكم وإعادة بنائه وهذا النوع من الفكر التقويضي هو الذي يساعد في إعادة الغرب إلى الهوامش ويعيد للشرق مركزيته كما كان الأمر ما قبل الكولونيالية الغربية. كما تعيد المجد لثورات الفلاحين والطبقات الكادحة التي عانت من الحرب والاستعمار بعد أن كانت مهمشة ومنسية. فمشروع دراسات التابع هو مشروع عالمي كوني يسعى إلى فك الارتباط بالمركزية الغربية والتركيز على الفلاحين والطبقة الكادحة لأنهم الفئة الداعمة لنمو الشرق وتطويره. كما يدعو هذا المشروع العالمي إلى تعميق الوعي بالخصوصية القومية للأنا وضرورة الحفاظ عليها من الوقوع في بؤرة التصورات الغربية الزائفة للآخر. ومن أبرز مفكري دراسات التابع فانون الذي يركز على ضرورة نفخ الروح في الأنا حتى يستعيد حضوره أمام الآخر. فانون ينظر إلى الآخر على أنه بمثابة الرغبة التي تحرك الأنا. وهذا ما يعني أن فرصة التقاطع بين الأنا والآخر، بين الشرق والغرب بنقاط متعددة اقوى بكثير من فرصة الخصام فهما شريكان في الإرث الحضاري لذلك هما في أمس الحاجة للتوافق. أما ما يخص مفهوم ما بعد الاستعمارية أو ما بعد الكولونيالية فقد بدأ فكر ما بعد الاستعمارية بالتبلور مع نهاية السبعينات من القرن الماضي ولعل

[10] **المرجع السابق نفسه، ص 166.**

أبرز المثقفين الذين وضعوا إطاره النظري هو الأكاديمي الأميركي من أصل فلسطيني ادوارد سعيد من خلال كتابه الاستشراق والذي برر فيه الاستعمارية حيث أراد الإسهام في تحسين شروط علاقة التبعية والتخلص من جوانبها السيئة بما يخدم الجانب التابع أي أنه لم يدعُ للتخلص منها كلياً بل انتقد الشكل المتردي للتبعية وليس التبعية بحد ذاتها بقوله: " يشكل العالم العربي اليوم تابعاً فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة لا تبعث هذه العلاقة على الأسى بحد ذاتها لكن الشكل المحدد الذي تتخذه علاقة التبعية هذه هو الذي يبعث على الأسى " [11]

فمن غير الممكن لأي مجتمع شرقي كان أم غربي أن يتعرف على مجتمع آخر غريب عنه من دون إخضاعه لعملية تطورية من قبل الآخر لتلبية احتياجاته. فقد سعى الغرب إلى إخضاع الشرق لعملية تطورية من أجل تلبية مصالحه الاستعمارية من خلال ابرازه للصفات الإيجابية فيه لأنه كان يستحيل على الغرب أن يقتحم ثقافة الشرق من دون تبويبه وتشويهه أولاً، وهذا ما يعبر عنه بقوله:

"تنزع الثقافات دوماً إلى فرض تحولات كاملة على الثقافات الأخرى بحيث لا تتلقى ثقافة ما غيرها من الثقافات كما هي بالفعل، بل تتلقاها كما يجب أن تكون لصالح المتلقي". [12]

إن رؤية محمود أمين العالم لموقف العرب من الغرب وموقف الغرب من العرب كانت قائمة دوماً على معيار منهجي يقبل الفكر الآخر ويرسخ القراءة النقدية للغرب من خلال تجاوز المركزية الغربية، هذا الموقف يتفق جزئياً مع إدوارد سعيد، الذي عمد في نصوصه على تفكيك أفكار المركزية الغربية، مع قبوله نسبياً الإمكانيات المنهجية الغربية في دراسة الشرق *فقد أدرك سعيد وجود بعض المفكرين الغربيين الذين نظروا للشرق نظرة منصفة، فالغرب برأيه ليس أحادياً أو متماثلاً على الرغم من وجود نوع من التجانس الأوروبي الثقافي.* [13]

لقد لاحظ إدوارد سعيد رغم ما سبق أن الاستشراق بطبيعته هو عميلة نشر نوع معين من الوعي في النصوص الغربية العملية والاقتصادية وغيرها يسعى فيها إلى تأكيد أن العالم ينقسم إلى قسمين غير متساويين هما الشرق والغرب، الهدف منه زيادة التوسع في الشرق، فالمشكلة المنهجية في التعاطي الثقافي الغربي مع الشرق هي نظرته ذات النزعة الاستعلائية، والتي قد تصل إلى حد الكراهية من خلال البروباغندا، يقول سعيد: "إن الخطوة الأولى في كره الآخر وتجريده من إنسانيته هي تقويض وجوده وصورته وأفكاره إلى عبارات بسيطة قليلة تكرر باستمرار. هذا يسهل قصف العدو بدون وجع ضمير". [14]

تكشف دراسات إدوارد سعيد عموماً عن فكرة مضمرة في الدراسات الأوروبية عن الشرق، وهي فكرة لطالما أثرت في تعاطي المفكرين العرب مع الآخر الغربي، ومفاد هذه الفكرة أن مركزية الغرب مبررة بفكرة مثقفي الغرب عن هويتهم المتفوقة، وربما تعود هذه الفكرة إلى جذور ثقافية ذات طابع عنصري، مرتبط بالنظرة الأنثروبولوجية المؤدلجة، وهذه النظرة ترتبط وتتطور على نزعة توسعية إمبريالية من خلال الإيديولوجيات الغربية السياسية التي ظهرت وتظهر في كثير من الأحداث التاريخية الغربية، يقول إدوارد سعيد: "يكمن خلف هذا المنظور الإمبريالي الغريب رأي استشراقي موغل في القدم لا يسمح للعرب أن يمارسوا حقهم في تقرير المصير كأمة. وينظر إليهم كأناس مختلفين غير قادرين على فهم المنطق وقول الحقيقة وفي جوهرهم فوضويون ومجرمون. ومنذ غزو نابليون لمصر عام 1798 كان هناك

[11] العظم، صادق جلال: ما بعد ذهنية التحريم، المدى، بيروت، ط1، 1997 ص 35.

[12] المصدر السابق نفسه، ص 21

[13] سعيد، إدوارد. خيانة المثقفين، مرجع سبق ذكره، ص 15.

[14] المرجع السابق نفسه، ص 267.

حضور امبريالي لم ينقطع مبني على هذه الأسس الفكرية في كل العالم العربي وسببت بؤسا لا يوصف وبعض الفوائد للغالبية الساحقة من الشعب". [15]

على أن محمود امين العالم لا يقبل أفكار إدوارد سعيد كما هي، بل يعارضه في كثير منها، خصوصاً أن إدوارد سعيد لا يسجل موقفاً جذرياً من التبعية السياسية والثقافية للعالم العربي تجاه الغرب، فتصور المثقف العربي عن ذاته بالنسبة لأمين العالم يرتبط بالخصوصية التي تناقض التبعية، من خلال تطورها –أي الخصوصية– إلى الكونية الشاملة للذات والآخر.

ما يُقصد بالخصوصية ليس تفضيل شيء على آخر أو ثقافة مجتمع على آخر وإنما تعني ما تمتاز به كل ثقافة ضمن مجتمعها. صحيح أن لكل مجتمع طبيعة تخصه ولكن في أعماق تلك الطبيعة هناك تنوعات واختلافات وتناقضات تُعاش ضمن تلك الطبيعة، وخصوصية الإنسان تختلف عن خصوصية الحيوان أو النبات لأن الإنسان كائن قابل للتطور وهو في ديمومة مستمرة يتغير ويتطور ويتفاعل ضمن خصوصية طبيعته التي خُلق لها ومن أجلها فهو به تتشكل الانسانية والحضارة. وعلى الرغم من أن جميع المجتمعات تشترك في وجود الإنسان وتشترك في وجود الطبيعة البشرية الموحدة إلا أن هذه الوحدة تحتوي على اختلاف في ثقافاتها وأديانها وعاداتها وأعراقها ولغاتها وألوانها، هذه الوحدة ليست ثابتة وجامدة وغير قابلة للتجدد وإنما هي في تجدد دائم، كما أن الخصوصية لا تعني التطور والتقدم والتغير ضمن الذات فقط أي بمعنى الانغلاق على التطور الذاتي فحسب ولا تعني التخلي عن جوهر خصوصيتها أيضاً بل تعني الانفتاح على غيرها من الخصوصيات الأخرى أي بمقدار تطورها ذاتياً يجب أن تسعى لأن يكون تطورها كبيراً بمقدار ما تستطيع إضافته من ثمار إيجابية في الخصوصيات الأخرى وبمقدار تفاعلها معها، وهذا التفاعل والانفتاح يجب أن لا يكون بقصد إلغاء ذاتها بل بقصد الإغناء والتجدد وهنا يكمن مفهوم الكونية. وكما يقول محمود أمين العالم في كتابه الخصوصية والكونية:

"هذا التطور والتفاعل والتجدد والتفتح المتصل هو جوهر الشرط الإنساني وجوهر طبيعته الإبداعي على أنه إلى جانب هذا الطابع التاريخي المتطور للهوية فضلاً عن طابعها المتفاعل والمتشابك مع مختلف الهويات والخصوصيات الأخرى فإن الهوية كبعد ثالث من أبعادها وكدلالة موضوعية لها ليست أحادية البنية ولا تتشكل من مقوم واحد فحسب هو المقوم الديني وحده أو المقوم الإثني القومي أو العرقي وحده أو المقوم اللغوي وحده أو مقوم الخبرة والممارسة التاريخية التراثية وحدها أو المقوم الثقافي والوجداني والإبداعي وحده أو الخبرات المجتمعية المشتركة وحدها أو المقوم المصلحي وحده، وهي ليست إيجابية في كل عنصر من عناصرها بل فيها من الإيجابيات كما فيها من السلبيات، فيها ما يعبر عن تقدم وفيها ما يعبر عن تأخر وتخلف، وإنما الهوية هي مركب وحصيلة من اتصال وانقطاع وتداخل وتفاعل هذه العناصر جميعاً، وإن برز إلى الصدارة أحد هذه المقومات على المقومات والعناصر الأخرى تعبيراً حاداً عن الهوية في هذه المرحلة أو تلك من مراحل التاريخ وبحسب طبيعة الظروف الموضوعية السائدة أو الطارئة". [16]

ولهذا فإن معظم مفكري الخطاب ما بعد الاستعماري يعتبر أن الأسس المعرفية للفكر الاستعماري ما زالت موجودة حتى يومنا هذا، لذلك سعوا من خلال دراسات التابع إلى تقديم خطاب جديد يعيد صياغة الإطار المعرفي الغربي حول الشرق وبحث مفكرو ما بعد الكولونيالية عن سبل تجاوز الآثار التي خلفها الاستعمار على الشعوب التي عانت منه لاسيما على الصعيد الثقافي وإبراز صوت الفئات المهمشة في المجتمعات التي خضعت للاستعمار. وهذا يعني أن ما

[15] المرجع السابق، ص 52.

[16] العالم محمود أمين، الخصوصية والكونية، مصدر سبق ذكره، ص21.

بعد الاستعمارية تعد تحليلاً نظرياً نقدياً لتاريخ وثقافة القوى الاستعمارية الأوروبية. وهي عبارة عن رد فعل على السلطة الكولونيالية بشكل مشابه لما بعد الحداثة التي هي رد فعل على الحداثة.

الاستنتاجات والتوصيات:

نستنتج من هذا البحث أن:

1. العالِم من المفكرين المعاصرين الذين أكدوا على وحدة الأنا والآخر، فالأنا لا تتشكل هويتها إلا في ضوء علاقتها بالآخر والآخر لا شك تأثر بالأنا.
2. العالِم يرى أن العالم في وحدة كونية لا ينفصل فيها عنصر عن آخر.
3. دحض ثقافة التبعية أي تبعية الأنا للآخر، وضرورة استبدالها بثقافة تبادل الأفكار والحضارات والتراث، فلا يمكن أن يكون هناك وجود للآخر دون الأنا والعكس صحيح.
4. نستنتج ضرورة حث الأنا والآخر على أهمية الوحدة من أجل بناء تعددية ثقافية تلغي تبعية الأنا لمركزية الآخر.
5. أن العالِم كان مصيباً حين أكد على الوحدة بين الأنا والآخر، لأنه حين يتوحد الأنا مع الآخر يكون قد أسس لمشروع قوي دعامته الحوار والإصغاء لصوت فكر الآخر وإنهاء حرب مدمرة بين إثبات ونفي ستنتهي إلى كوارث بشرية وطبيعية على مستوى العالم.
6. العالِم لم يكتفِ بطرح مفهوم الأنا والآخر فقط وإنما نظر للآخر على أنه امتداد، امتداد للثقافات، امتداد لإغناء القديم ومواكبة التطور، ومن هنا يمكننا الحديث عن محاولته لإقامته ترابط قوي وفعّال لتوحيد الإنسان في كل مكان وزمان.
7. في حديث العالِم عن الأنا والآخر أكد عدم إمكانية الفصل بينهما وأهمية التوحيد رغم الاختلاف وهذا أساس فكرته في مشروع بناء عالم متعدد المراكز.
8. ركز العالِم على قاعدة أساسية في الفكر العربي المعاصر تنطلق مما هو واقعي وموضوعي وهي قاعدة الاعتراف بوجود الآخر ورفض التبعية وهذا ما أكدت عليه ما سمي بدراسات التابع.

المصادر والمراجع:

1-العالم، محمود أمين. مفاهيم وقضايا إشكالية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط 1، 1989.

2-العالم، محمود أمين. الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1996.

3-سعيد، لإدوارد. خيانة المثقفين، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، 2011.

4-عطية، عبد الحليم. جدل الأنا والآخر- قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، 1997.

5-العظم، صادق جلال. ما بعد ذهنية التحريم، المدى، بيروت، ط1، 1997.

References:

1. Amin Al-Alam, M. Concepts and Problematic Issues, Dar Al-Thaqafa Al Jadida, Cairo, 1st edition, 1989. (In Arabic)
2. Amin Al-Alam, M. Privacy and Universality, Arab Future House, Cairo, 1996. (In Arabic)
3. **Said, Edward. Betrayal of the Intellectuals, translated by: Asaad Al-Hussein, NINAWA, Damascus, 2011.** (In Arabic)
4. Attia, A. The Dialectic of the Ego and the Other - Critical Readings in the Thought of Hassan Hanafi, Madbouly Al-Sagheer Library, Cairo, 1997. (In Arabic)
5. Al-Azm, S. Beyond the Mentality of Prohibition, Al-Mada, Beirut, 1st, 1997. (In Arabic)